مجلة الأصالة للدراسات والبحوث
Al Assala Journal for studies & Researches
مجلد 05 عدد 10 سنة 2023
ISSN 2710-8538
EISSN 2800-1508

إيالة الجزائر من خلال الكتابات التاريخية الغربية مذكرات بفايفر 1825–1830 أنموذجا

Algerian regency in the western writings, Pfeiffer's memoir 1825-1830 as a model

أماني سعدا لي [1] *، فاطمة الزهراء حمر الراس [2]
[1] جامعة محمد خيضر –بسكرة (الجزائر)
[2] جامعة يحي فارس – المدية (الجزائر)

تاريخ إرسال المقال: 24/ 12/2023م تاريخ نشر المقال: 04/ 07 / 2024

الملخص:

لطالما كانت ولاتزال تُعد مذكرات الأسرى من بين أهم المصادر التي يعتمدها الباحثون في مجال التأريخ على وجه الخصوص؛ كون صاحبها قيّد مشاهداته لكل ما مر عليه خلال فترة مكوثه بالبلد الذي وقع فيه أسيرا، وهذا النوع من التدوين انتشر كثيرا في الجزائر خلال العهد العثماني، وانطلاقا من أهمية هذا النوع من الكتابات سنتطرق في هذا المقال "إيالة الجزائر في الكتابات التاريخية الغربية مذكرات بفايفر 1825–1830 أنموذجا"، الذي يعتبر واحدا من الأوروبيين الذين أسروا بالجزائر، أين امتهن فيها الطب وقد ساعده منصبه هذا في التقرب من رجال الدولة ومعايشة أحداث مهمة دَوَّنَهَا بكل تفاصيلها في مذكراته ومن أهمها سقوط الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي سنة 1830.

الكلمات المفتاحية: الجزائر، الفترة العثمانية، سيمون بفايفر، الرحلات، مذكرات تاريخية

تصنيف JEL : N70

*1 المؤلف المرسل: الإيميل: amani.saadali@univ-biskra.dz
*2 المؤلف المرسل: الإيميل: hameurrerasfatma@gmail.com

Abstract :

Prisoners' memoirs have long been and continue to be among the most important sources adopted by researchers in the area of history in particular; The fact that the author has restricted his views of everything that he went through during his stay in the country in which he was captured, and this type of codification has been very widespread in Algeria during the Ottoman era, and from the importance of this type of writing we will address in this article" Algerian regency in the Western historical writings, Pfeiffer's memoir 1825-1830 as a model", which is one of the Europeans who captured Algeria, where medicine has been practised. His position has helped him to get closer to the statesmen and to live with important events that they have documented in all their details in his memoirs, the most important of which is the fall of Algeria to French occupation in 1830.

Keywords: Algeria, Ottoman era, Simon Pfeiffer, the journeys, historical memoirs.
Classification JEL : N70

مقدمة:

تميَّزت الحقبة العثمانيّة في الجزائر بتنوّع المؤلفات التي تناولتها، بين عربية وأجنبية شاملة لكتابات الرَّحالة والقناصل وحتّى الأسرى، هؤلاء الّذين تواجدوا بمدينة الجزائر مدّة من الزمن، فعبروا عما رأوه بأقلامهم في شكل مذكّرات، التي لم تكن مجرّد ورقات تقصّ يوميات أسرهم فحسب، بل كانت عبارة عن سجل لمختلف مظاهر الحياة، يصف فيها صاحبها كل ما شاهده من مناظر وما عاشه من أحداث، خاصة وأنهم أسرى غرباء عن المدينة، يُلفت انتباههم كل ما هو غير مألوف عندهم من تقاليد وعادات السكان فيقيدون انطباعاتهم حولها.

وبعض الأسرى نتيجة المهن المهمة التي امتهنوها كالطب والهندسة...، تقربوا من رجال الدولة والحكام، ما جعلهم يحصلون على معلومات وحيثيات مهمة ودقيقة، مثلما هو حال سيمون بفايفر الذي أمدنا بحيثيات أحداث مهمة حول إيالة الجزائر نهاية العهد العثماني، وباعتبار أن المذكرات هي تسجيل لكل الأحداث والوقائع، فإنها توفر مادة غزيرة تخدم المؤرخ على وجه الخصوص، وإن اختلفت نظرة واستقراء صاحبها للحادثة كونه أجنبي إلا أنه يسردها كما وقعت، وبالتالي فإنها تُصنف من أهم المصادر التاريخية، وفي كثير من الفترات ما تُعد المصدر الأكثر شمولية في ظل غياب الكتابات التاريخية.

وعليه فإن هذه الدراسة تهدف إلى معرفة مساهمة الأسير الألماني سيمون بفايفر في بناء صورة إيالة الجزائر نهاية العهد العثماني، انطلاقا من استغلال المادة التاريخية التي قيدها في مذكراته، وذلك من خلال طرح الإشكالية التالية: ما الصورة التي طبعتها مذكرات بفايفر حول إيالة الجزائر نهاية العهد العثماني؟

1. التعريف بالمؤلف

هو جورج سيمون فريدريك بفايفر George Simon Friedrich Pfeiffer ولد حوالي سنة 1810م بمنطقه راينهيسن Rhienhessen بألمانيا، فقد والديه وهو لم يتجاوز سن السادسة، فتولى أمره بعض أقاربه الذين حرصوا على تعليمه أين بدأ يتعلم فن الجراحة، سافر بعدها الى عاصمة هولندا امستردام وسنه لم يتجاوز الخامسة عشرة عند أحد معارفه الذي ساعده في الانضمام إلى المدرسة الحربية التي كانت طابعه عسكري، وفي إطار مهمة كُلف بها سيمون رفقة زملائه اتجه في ديسمبر 1824م نحو البحر الأبيض المتوسط لحماية السفن التجارية من القراصنة، وبسبب العواصف الشتوية التي داهمت سفينتهم اضطروا إلى التوقف في عدة موانئ، من بينها ميناء مدينة ازمير التي أقاموا بها عده أيام، لترسوا بهم السفينة مرة أخرى في ميناء أورله الذي لا يبعد كثيرا عن ازمير[1] .

وفي شهر جويلية 1825م خرج بفايفر للتنزه في المنطقة مع عدد من رفاقه، حتى هاجمهم جمع من الإنكشارية مسلحين فأُصيب بفايفر بجروح ووقع هناك أسيرا بيدهم[2] ، نقلوه إلى ازمير ومن ثم رفقة مجموعة من الأسرى من جنسيات مختلفة تم نقلهم إلى الجزائر، وبعد رحلة دامت 25 يوما وجد بفايفر نفسه في النهاية يمارس مهنة الطبخ في قصر الخزناجي[3] ، وبعد سنتين من الأسر ونتيجة اتقانه مهنة الطب أصبح بفايفر الطبيب الشخصي للوزير، فتغيرت حالته للأحسن ولم يعد يُعامل معاملة العبد كما كان في البداية، وساعده منصبه هذا في معرفة العديد من حيثيات الأحدث وخاصة تلك المتعلقة بالاحتلال الفرنسي للجزائر، دامت فترة أسره خمس سنوات (1825-1830م)[4] ، وقد استمر بفايفر في مهنة الطب حتى فُك أسره، حيث كان هو الطبيب الوحيد الذي عالج جرحى الأتراك والأهالي عند الدخول الفرنسي لمدينة الجزائر سنة 1830م،[5] وإلى جانب

---

[1] سيمون بفايفر، **مذكرات لمحة تاريخية عن الجزائر**، تر وتق: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، صص4-5.

[2] مصدر نفسه، ص6.

[3] أحميدة عميراوي، **الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني مذكرات تيدنا أنموذجا**، دار الهدى، عين مليلة، 2003، صص 16-17.

[4]. Alfred Michiel, « **La Prise D'Alger Raconté Par Un Captif** », Revue africaine, n.01, 1875, Alger, p.472.

[5] أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال**، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1967، ط.3، ص169.

مهنة الطب شغل كذلك منصب خزندار لدى باي تيطري مدة أسبوعين، ليُقرر بعدها مغادرة الجزائر وكان ذلك يوم 16 سبتمبر 1830م عائدا إلى بلده ألمانيا أين وصل دراسة فن الجراحة إلى أن توفاه الأجل أواخر سنة 1830م.[6]

- **أهم مؤلفاته**

بعد مدة الأسر التي قضاها في الجزائر وعند عودة سيمون بفايفر إلى ألمانيا، قرر كتابة تجاربه التي عاشها خلال فتره الأسر بالجزائر وعنون كتابه هذا الذي كان باللغة الألمانية بـ "meine reisen und meine fuenfjachrige gefangenschaft in algier"، أي: "رحلاتي في سنوات أسري الخمس في الجزائر"، ونشرها سنه 1832م بمدينة giessen ، وهو عبارة عن مذكرات تناول فيها ملاحظاته ومشاهداته حول الجزائر أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي[7]، والتي تُرجمت إلى اللغة العربية لأول مرة سنة 1968م من قبل المؤلف أبو العيد دودو، ونُشرت في مجلة الجيش، أما أول طبعة فقد صدرت سنة 1975م بعنوان "مذكرات جزائرية عشية الاحتلال ".[8]

ونقل لنا فيها المترجم ملاحظات ومشاهدات الأسير الألماني بفايفر في الجزائر، وهي مكونة من 21 فصل، فيها وصف للمدينة وأيام اسره بها، وتبرز أهمية هذه المذكرات أكثر بدءا من الفصل السادس، حيث تحدث عن العلاقات الجزائرية-الفرنسية، قبل الاحتلال، كما وصف لنا وبدقه المعركة التي دارت بين الاسطولين، وتطرق كذلك في هذه المذكرات لعلاقة إيالة الجزائر مع كل من الباب العالي ومصر، غير أنه ركز أكثر على مقاومة الجزائريين للجيش الفرنسي ونزول هذا الاخير المدينة، مقدما بهذا وصفا لصورة المدينة في تلك الفترة وما عاشته من بؤس وحزن[9]، وعلى العموم يعتبر بفايفر الألماني الوحيد الذي اعتمد على تجاربه

[6] سيمون بفايفر، مصدر سابق، ص6.

[7] أحميدة عميراوي، مرجع سابق، ص17.

[8] محمد حمودي، "استراتيجية الترجمة عند أبي العيد دودو"، مجلة حوليات التراث، ع.5، 2006، جامعة مستغانم، ص84.

[9] نفسه.

الشـــخصـــية وعلى ما ســـمعه من أفواه الاهالي، غير أنه دائما ما كان يتحفظ في نقله لهاته الأخبار، وهذا دليل واضح على مدى صدقه ونزاهته.[10]

2. وصف مدينة الجزائر من خلال مذكرات سيمون بفايفر

يصـــف بفايفر في بداية مذكراته أول ما شـــاهده عن مدينه الجزائر، بأنها واقعة فوق جبل وتمتد منه منحدرة إلى الميناء، وبها ثكنات الإنكشـاريين، وقصـبة والتي هي محل اقامة الداي وعليها علم، وقد استمر في وصف المدينة من الناحية العسكرية، بذكره أنه يوجد أمامها قلاع وحاميات محيطة بالميناء الذي ترسوا به سفن مزودة بمدافع، إلى جانب هذا وصـــف بفايفر المدينة من الداخل وما تحتويه من مباني، ويذكر أن ما خُصـــص منها للســـفراء الاوربيين كانت قد تميزت بالفخامة والرُقي وعلى كل مبنى منها علم بلد الســـفير القاطن بها [11]، ربما باعتباره أجنبي لفت انتباهه وركز وصـــفه على كل ما هو أجنبي بالإيالة، ووصـــف بفايفر كذلك بروتوكول وصول السفن من الدولة العثمانية إلى الجزائر، فبمجرد وصولها الميناء ترفع العلم وتطلق ثلاث طلقات بالمدفعية [12]، وهذه أحد أهم مظاهر تبعية إيالة الجزائر للدولة العثمانية.

3. بفايفر وأيام اسره بمدينة الجزائر

بوصـول السـفينة إلى الميناء نُقل العبيد إلى قبو مظلم وكان بفايفر من بينهم [13]، ليتم بعد ذلك توزيعهم وفق خصائص بدنية، وكذلك وفق المهن التي امتهنوها من قبل[14] ، وكان وزير البحرية قد وقع اختياره على بفايفر فاسـتحبه معه إلى قصـره أين اشـتغل كطاهي في مطبخه، وكان لكل العبيد لباس موحد يميزهم عن باقي فئات المجتمع، أما المأكل والمسـكن الخاص بهم فقد كان بسـيط ومقبول إذ ما قُورن وضـعه بالعبيد المسـلمين في اوروبا، قدّم كذلك بفايفر وصـفا لحاله وحال من معه من عبيد، وما تعرض له من مشـقة العمل في القصـر، أما

---

[10] أبو العيد دودو، "المؤرخون الألمان والجزائر"، مجلة الأصالة، ع.14-15، 1973، الجزائر، ص118.

[11] سيمون بفايفر، مصدر سابق، صص12-13.

[12] مصدر نفسه، ص14.

[13] نفسه.

[14]. Pananti, **Relation D'un Séjour-Contenant Des Observation Sur L'état Actuel De Cette Re-celles-ci, Les Subjuguer**, Tr De L'anglais : Blanquiere Le Normant Imprimeur Libraire, Paris, p.93.

بعد تعلمه اللغة التركية أصبح كثير الاستماع لكل ما يتحدثه الاتراك فيما بينهم [15]، ربما هذا العامل الذي ساعده بدرجة كبيرة في نقل الأحدث بدقة وعمق أكثر.

غير أن بفايفر لم يستطع أن يعتاد على وضع الأسر فقرر الفرار مع رفاقه رغم معرفتهم بحجم المخاطرة وسهولة كشفهم إلى أن هذا لم يمنعهم من محاولة الفرار، لكن بفايفر لم يتمكن من النجاة فأمسك به الإنكشارية وعاقبوه، ورغم كل هذا إلا أنه لم يستطيع تحمل وضعه وهو عبد في مطبخ القصر مدة سنتين، غير أنه في أحد الأيام دخل الوزير المطبخ وسأله عن مهنته السابقة في أوروبا، ولما علم أنه طبيب تفاجأ بذلك وبمجرد ما مرض الوزير طلب من بفايفر معالجته[16].

فكانت هذه مرحلة مهمة في حياة الأسير سيمون بفايفر، حيث تم نقله إلى غرفة خاصة به وأصبح طبيب الوزير الخاص، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل حتى الداي حسين [17]أصبح يستشيره ما إن أصابته وعكة صحية[18]، وعليه فإن مهنة بفايفر الجديدة بالقصر قربته من رجال السياسة، ومنحته منصب يستطيع من خلاله نقل الأحدث بدقه ومصداقية كبيرة وإن اختلفت وجهة نظره فيها، فلا يُنتظر من أسير فاقد لحريته ومتعطشا لرؤية بلده وأهله أن تكون له نظرة المحلي لأحداث الإيالة ورجال الدولة.

كثيرا ما كان يذكر بفايفر في مذكراته حنينه إلى الحرية وبلده ومدى حزنه على الوضع الذي يعيشه، رغم تحسن حاله بعدما أصبح طبيب الوزير الخاص، غير أن هذا لم يُغير من رغبته في التحرر من عبوديته، وقدُ عُرض على بفايفر أكثر من مرة فكرة اعتناق الإسلام التي تعيد له حريته لكنه كان يرفض ذلك[19]، فكان يرى دينيه أهم بكثير من حريته رغم افتقاده لها، عكس بعض الأسرى الذين قبلوا الفكرة للتحرر.

---

[15] سيمون بفايفر، مصدر سابق، صص15-18.

[16] مصدر نفسه، صص20-26.

[17] هو حسين بن حسن آخر دايات الجزائر، ولد بقرية فولار بأزمير سنة 1779، من عائلة تركية الأصل وميسورة الحال، كان ضمن الفرق الإنكشارية بالجزائر وتدرج في المناصب حتى صار خوجة الخيل، ليُصبح بعدها حزناجي المنصب الذي أهله لاعتلاء سدة الحكم بعد وفاة علي داي. يُنظر: عبد العزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية**، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص616.

[18] سيمون بفايفر، مصدر سابق، صص26-28.

[19] مصدر نفسه، صص.2-31.

لقد كان بفايفر كذلك دائما ما يشكو الملل فيشغل نفسه ببعض الحرف كالرسم وصناعة أقفاص الطيور، وحتى يتمكن من قراءة كتب الطب باللغة العربية والتركية لتحسين مهاراته، جلب له الوزير معلم من أجل ذلك، والذي لم يقتصر تعليمه على اللغة فقط بل تعلم كذلك منه عادات وتقاليد أهل البلد[20].

4. العلاقات الجزائرية-الفرنسية

من أهم الأحداث التي عاشها بفايفر في الجزائر ومن اهم أوضاعها أن قُطعت العلاقات بين الجزائر وفرنسا، جراء تطاول قنصل فرنسا هناك على الداي يوم عيد الفطر، وفي عرضه لأسباب هذه الحادثة، يذكر بفايفر مصدر نقله لها وهم الجزائريين أنفسهم، كما أنه يُرجع انقطاع العلاقات بين البلدين، إلى أن فرنسا كانت ملزمة بدفع إتاوة سنوية ليُسمح لسفنها بالمرور وتُمنح لها أحقية اصطياد المرجان بموانئ الإيالة، وهذا بموجب معاهدة عقدتها مع الجزائر في وقت سابق، غير أن فرنسا قد تماطلت وانشغلت بمسائل اخرى عن دفع هذه الإتاوة، ما جعل الداي يعلن عليها الحرب[21].

لقد كان في كثير من المرات ما يمنح الداي حسين فرنسا الفرص والوقت لتسديد ديونها، وناهيك عن تلك المتعلقة بالسفن، فقد اشترت من قبل فرنسا القمح من الجزائر بواسطة التاجرين اليهوديين بكري وبوشناق إلا أنها لم تسدد ثمن ذلك، هذا ما وتّر العلاقات بين البلدين، وجعل من فرنسا تنتظر الفرصة المواتية لإرسال حملة على الجزائر، وقد كان يأمل بفايفر في تحرير فرنسا للعبيد الاوروبيين بالجزائر في حال ما عجزت عن احتلالها، وقوله هذا يوحي بمدى قوة الإيالة عسكريا آنذاك ،[22] ورغم أن أوضاع الجزائر أواخر القرن 18م كانت تتصف بالضعف نوعا ما، لكن صورة القوة لازالت مرسومة في ذاكرة الأجانب.

[20] مصدر نفسه، صص44-51.

[21] مصدر نفسه، صص33-34.

[22] مصدر نفسه، صص35-37.

إن المطلع على مذكرات الأسير بفايفر يلاحظ أنه لم يبين موقفه من الأحداث الواقعة بين الجزائر وفرنسا، بل ما كان يهمه في الامر فقط هو أن ينال حريته، فكان يرى في شن فرنسا الحرب على الجزائر فرصة مواتية وإحياء لأمل استعادته لحريته والتخلص من الوضع الذي هو فيه.[23]

5. الحصار الفرنسي على الجزائر

وبالعودة إلى الحديث عن حادثة الداي والقنصل الفرنسي دوفال Deval[24] ، فنجد أن هذا الأخير قد كتب تقرير مفصل لبلده حولها وغادر الجزائر، لتشن فرنسا حملة على الجزائر فحاصرتها بحريا وضاق الخناق على الأهالي، وتراجع الاقتصاد لركود التجارة والمبادلات البحرية، وكانت الوضعية حرجة نتيجة تدهور الوضع الاقتصادي والذي نتج عنه استياء وتذمر اجتماعي، وبالتالي يكون بفايفر قد رصد لنا أوضاع الإيالة الجزائرية سنة 1828م، والتي كانت مقبلة على حرب شرسة مع فرنسا.[25]

الوضع حاله استمر لمدة ولم يكن لداي حلاً سوى تجهيز الأسطول ومهاجمة السفن الفرنسية المحاصرة للميناء، وقد شارك في هذا الهجوم متطوعون من الأهالي للتخلص من الحصار الفرنسي الذي أنهكهم، وقد وصف بفايفر المعركة التي شاهدها بمنظاره وذكر أن الأسطول الفرنسي يتألف من "...أربعة سفن بارجة حربية كبيرة وحراقة وسفينة شراعية ذات صاريين وشونة"، أما السفن الجزائرية فكان عددها 11 سفينة.[26]

ودارت بين الطرفين معركة كبيرة، حارب فيها الجميع بقوة شديدة، غير أن حنكة وخبرة إحدى قادة الأسطول الجزائري والذي يدعى عمر، مكانته من إلحاق الضرر بالسفن الفرنسية، وبالتالي حقق انتصار تراجع من خلاله الاسطول الفرنسي، بعدما ألحق هو الآخر أضرار جمة بالأسطول الجزائري ما أثار غضب الداي، وبعد هذه الحادثة أدرك الجميع مدى خطورة العدو، وأن وضع الجزائر لم يبق كالسابق، ولم تعد قوة يُحسب لها

---

[23] مصدر نفسه، ص36

[24] هو شخصية سياسية تولى مهام ديبلوماسية عهد كل من الملك لويس 18 ولويس العاشر، وكان قنصل عام لفرنسا بإيالة الجزائر وهو الذي كان وراء حادثة المروحة. ينظر: كريمة حرشوش، **جرائم الجنرالات الفرنسية ضد مقاومة الأمير عبد القادر بالجزائر من خلال أدبياتهم 1832-1847**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، د.ت، ص16.

[25] سيمون بفايفر، مصدر سابق، صص36-40.

[26] مصدر نفسه، ص40.

مثلما كان الحال من قبل، بل حتى الأهالي أصبح لهم علم بالوضع الحقيقي، ما أثار غضبهم من الداي، وقد حاولت مرة أخرى فرنسا مهاجمة الجزائر لكنها فشلت في ذلك.[27]

6. علاقة الجزائر بالدولة العثمانية:

لم يُورِد بفايفر في مذكراته هذه دور ولا موقف الدولة العثمانية من الهجوم الفرنسي على الجزائر، ولا حتى على طبيعة العلاقة الجزائرية-الفرنسية، وباعتبار أن الجزائر إيالة تابعة لها فمن المنتظر أن يكون للباب العالي موقف من هذه الأحداث، لكن هذا لم يرد، بل كل ما فعلته الدولة العثمانية هو أنها أرسلت مرسول لداي يأمره بأن يجهز له جيش على الطراز الاوروبي، ولكن الداي رفض الفكرة وطلب من السلطان العثماني ألا يتدخل في شؤون الجزائر كونه يتبنى تقاليد المسيحيين.[28]

حسين داي على هذا الحال يتصرف وكأنه حاكم مستقل بالجزائر، وحتى لما أعاد السلطان طلبه لداي بأن يمنحه عدد من الجيش ويقرضه مبلغ سبعة ملايين قرش، رفض طلبه بحجة أنه في حالة حرب مع فرنسا، ورغم تقليد الكثير من حكام الولايات العثمانية السلطان في اصلاحاته المقتبسة من أوروبا، غير أن حاكم الجزائر رفض هذا[29]، ربما يعود السبب في ذلك علاوة على أنه رأى في هذه الإصلاحات تقليد للغرب المسيحي، أن كذلك وضع البلد لا يسمح له بأي تغيير أو إصلاح كان، فهو على مشارف الحرب مع فرنسا التي أصبح يُحسب لها.

[27] مصدر نفسه، ص، ص42، 44.

[28] مصدر نفسه، ص45

[29] مصدر نفسه، صص45-46.

بل حتى لما طلب حاكم مصر محمد علي باشا[30] من الداي تنفيذ طلب السلطان والتشبه بفرنسا حتى يأمن شرها ووعده بمساعدته في ذلك لكنه رفض [31]، فحسين باشا عُرف بمدى حسن أخلاقه وتعلقه بالدين الإسلامي لذلك رأى في هذا الإصلاح منافيا للشرع كونه تقليد لما هو منتشر في أوروبا، وقد كان شريف النفس وعريق النسب هذا ما جعله يرفض فكرة التشبه بفرنسا التي هي العدو الأول له في هاته الفترة وربما رأى في ذلك ضعف منه، كما أن حسين داي لم يشهد عليه وأن نقض معاهدة كان قد أبرمها من قبل مع أي دولة كانت، وهذا ما قامت به فرنسا حيث لم تلتزم بالمعاهدة المبرمة مع الجزائر، وبالتالي يستحيل عليه الخضوع لها أو تقليدها لكسب ودها[32].

كل هذه الأحداث استطاع بفايفر الوصول إليها بفضل اتقانه اللغة وقربه من رجال الدولة، وحتى قربه من بعض الإنكشارية وخدمه البساكرة مكّنه من الحصول على معلومات[33]، ليس هذا فحسب بل حتى علاقة هذا الأسير مع الوزير كانت حسنة لدرجة أنه طلب منه إطلاق سراح شيخ أسير فلبى له الطلب[34]، وكان هذا القرب عاملا آخر مساعد لبفايفر في نقل المعلومات حول إيالة الجزائر.

7. الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي

في الفاتح من شهر أوت 1829م قدمت سفينة فرنسية إلى ميناء مدينة الجزائر وعلى متنها مبعوث الحكومة الفرنسية، بهدف إبرام الصلح مع الداي لكنه رفض ذلك وكان رده حاد[35]، ربما الداي قد اعتاد على

---

[30] هو محمد علي إبراهيم وُلد سنة 1769 بمدينة قوالة ببلاد الأرناؤوط بالقرب من اليونان، توفي والده وهو صغير السن فكفله أحد اقاربه في شبابه قرر الانضمام إلى الجيش الإنكشاري الذي سُيّر إلى مصر لمحاربة الفرنسيين أين عرف بشجاعته وذكائه وبعدما هُزم الفرنسيين في مصر واستتب الأمر للعثمانيين مجددا عين الصدر الأعظم في محمد علي باشا واليا هناك، حيث كانت فترة حكمه من أزهى العصور وعرفت بالحداثة والإصلاح. ينظر: إسكندر بن يعقوب آغا، **تاريخ محمد علي باشا**، تح: أحمد عبد المنعم العدوي، مركز الدراسات الأرمينية، القاهرة، 2009، صص44-49.

[31] سيمون بفايفر، مصدر سابق، ص46.

[32] محمد بوشنافي، "الداي حسين وسقوط الإيالة الجزائرية 1818-1830"، مجلة عصور، ع.6-7، جوان-ديسمبر 2005، جامعة وهران، صص98-99.

[33] سيمون بفايفر، مصدر سابق، ص47.

[34] مصدر نفسه، صص54-56.

[35] مصدر نفسه، ص57.

القوة ومنصب الريادة، فكيف له أن يتفاوض مع من كانوا في وقت سابق خاضعين لقوته البحرية؟ وعند خروج السفينة الفرنسية من ميناء الجزائر ونظرا لهبوب رياح قوية أرغمت السفينة على الاتجاه نحو الحامية الجزائرية غير أن هذه الأخيرة أطلقت عليها النار[36].

الحقيقة أن معلومات بفايفر حول الأحداث التي وقعت عندما كان يشغل منصب طبيب الوزير، كانت دقيقة ومتسلسلة أكثر نتيجة تقربه من أغلب رجال الدولة، وإقامة علاقات معهم عند قدومهم للعلاج عنده، وعليه فقد أورد بفايفر من خلال ملاحظته لعلاقة الداي بوزرائه مدى تأثيرهم عليه وعلى قراراته، بحيث أن قرار ضرب السفينة الفرنسية أصدره الداي بعدما أشار عليه الخزناجي آغا، لكن لتخوفه مما سيصدُر من الطرف الفرنسي جعله يُقيل وزير البحرية وحمّله مسؤولية ضرب السفينة، وهذا حتى يبرئ نفسه.[37]

وعليه فمن خلال هذه الحادثة وما سبقها من قرارات، يبدو وكأن الداي أصبح يتخذ قرارات آنية لا مبرر لها، وهذا ما وضعه والإيالة في حالة حرجة خاصة من حيث علاقته مع كل من الدولة العثمانية وفرنسا، فلا الوضع يسمح له بعدم تلبيه أوامر السلطان، الذي بإمكانه التدخل ومساعدته في وضع حد للتوتر القائم بينه وبين فرنسا، كما لا يسمح وضع الإيالة من جهة اخرى بالدخول في حرب مع أي دولة كانت، لكن الداي فعل عكس هذا، ما جعله يدخل في صراع مع فرنسا.[38]

الحقيقة أن حسين داي قد عُرف بحنكته وثقافته الواسعة وحسن إدارته وتسييره للحكم، غير أن الظروف التي تولى فيها حكم الإيالة كانت صعبة، وكانت هناك فوضى وتجاوزات قديمة لا بد من وقت طويل للقضاء عليها، حتى وزراءه لم تكن لهم التجربة ولا الشجاعة الكافية لإدارة الأزمات، كل هذه الأسباب مجتمعة قادت الإيالة للدخول في حرب مع فرنسا[39].

وبالحديث عن توتر العلاقات الجزائرية-الفرنسية، فقد أرسل حسين داي جواسيس لفرنسا، وهم من نقلوا إليه مدى استعداد هذه الأخيرة للهجوم على الجزائر، فجهز الداي بدوره الجيش لكنه لم يكن مستعد

---

[36] نفسه.

[37] مصدر نفسه، صص59-60.

[38] مصدر نفسه، ص61.

[39] حمدان خوجة، **المرآة**، تر وتح: محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005، ص136.

بالشكل الكافي خاصة في البر، وقد كان هناك غياب للانسجام بين الداي ورجاله، فمثلا قائد منطقة بليدة زج بمشايخ الجبال المجاورة له في السجن دون إعلام الداي بذلك فحدثت فوضى في الأواسط الشعبية.[40]

وعلى العموم فإن وضع الأتراك بالجزائر كان يُوصف بالصعب، فلا يمكنهم طلب مساعدة من السلطان العثماني لعدم تنفيذ مطلبه، ولا كمية الأسلحة وعدد الجنود كاف للقيام بحرب، إلى جانب هذا فالأقلية التركية المسيطرة على الحكم لم تكن تخشى الدخول في صراع مع فرنسا فحسب، بل كانت كذلك متخوفة من قيام الجزائريين بثورة ضدها نتيجة السياسة الجبائية المجحفة التي طبقتها ضد الأهالي في وقت سابق، فالضعف قد دب في نفوس الأتراك ولم يعد لحسين داي من حل سوى استمالة الرعية ومعاملتهم بلطف حتى يضمن مساعداتهم له، فكانت هذه هي أوضاع إيالة الجزائر في تلك الفترة.[41]

وفي يوم عيد الأضحى كاد أن يُقتل الداي إثر مؤامرة خطط لها عدد من الإنكشارية ضده لسيطرة على الحكم، فقرروا طعنه رفقة حاشيته عند دخولهم لتهنئته بالعيد، لكنهم فشلوا بعدما خانهم أحد المدبرين لها، ولما علم الداي قام بقتلهم، ومن هنا تزعزعت ثقته بالإنكشارية[42]، في وقت كان من المفترض أن تلتحم جميع القوى مع بعضها البعض لصد الخطر الأجنبي، فكيف يتمكن الداي من صد الخطر الفرنسي المحدق بالإيالة والأمن الداخلي في حالة اللاستقرار؟ من الصعب تحقيق الانتصار في حرب والصفوف غير موحدة لانعدام الثقة فيما بينهم، وهذا هو الحال الذي أصبح عليه حسين داي.[43]

8. نشوب الحرب وسقوط مدينة الجزائر

بينما الإيالة الجزائرية تعيش الفوضى والضعف كان الأسطول الفرنسي قد وصل إلى ميناء الجزائر وذلك في صائفة 1830، في المقابل جهز الداي جيشه المكون من الأهالي وبعض الإنكشارية المتبقين بالإيالة، فلم يكن ملتحما مقارنة بالجيش الفرنسي المجهز من حيث التدريب والأسلحة، وهذا منطقي فجيش حسين داي

[40] سيمون بفايفر، مصدر سابق، صص61-64.

[41] مصدر نفسه، صص73-74.

[42] مصدر نفسه، صص 75-76.

[43] مصدر نفسه، ص77.

مكوّن من عناصر مختلفة،[44] وقد عُرف عن الإنكشارية استعلائهم عن الأهالي واضطهادهم لهم في وقت مضى ما جعل بينهم تنافر كبير، فكيف سيحاربون جنبًا إلى جنب ويكون هناك توافق وانسجام بينهم؟ رغم هذا إلى أن الداي كان على ثقة تامة من تحقيق جيشه للانتصار،[45] ربما يعود ذلك إلى اعتياد العثمانيين على تحقيق الانتصار في أغلب المعارك ولقرون عديدة ما جعل الأمر يُرسخ في أذهانهم.

بعد مضي ساعات من إطلاق النار بين الجيشين، ولعدم تناسق الجيش الجزائري؛ تمكن الفرنسيون من اختراقه والاستلاء على المدفعية الجزائرية، كما تمكنوا من النزول إلى البر وسط ذعر ودهشة السكان والجهاز الحاكم لما سيحل بهم[46]، فما كان على الداي إلا عقد اجتماع مع رجال دولته والعلماء للتشاور في ما يجب القيام به في هذا الوضع، كما راسل بايات وشيوخ الإيالة لإعادة تنظيم الجيش، فتمكنوا من ذلك وتولى قيادة الجيش باي تيطري مصطفى بومزراق[47] وكذلك رجال الدين والمتصوفة [48]، لكنهم لم يتمكنوا من صد الجيش الفرنسي الذي كانت تصله الإمدادات عن طريق البحر ولم يتوقف عن قصف المدينة.[49]

دبّ الخوف في نفوس السكان الذين ألحوا على الداي من أجل التفاوض مع الفرنسيين لكنه رفض ذلك قطعا، وعزم على الاستمرار في المقاومة، غير أنَّ رجال الدولة والعلماء استمروا في إلحاحهم على الداي باعتبار أن الوضع حرج ولابد من التفاوض فوافقهم الرأي، ولما أرسلوا مبعوث للقائد الفرنسي رفض التفاوض، وطالبهم بضرورة الاستسلام وإلا سيستمر الجيش الفرنسي في قصف المدينة، وما كان له غير ذلك حيث تم تسليم المدينة واحتلها الجيش بالكامل[50]، وما كان للجزائر أن تسقط في يد الفرنسيين لو كان هناك تنسيق

---

[44] مصدر نفسه، ص80.

[45] مصدر نفسه، ص82.

[46] مصدر نفسه، صص83-85.

[47] تولى حكم بايلك تيطري من سنة 1819 إلى سنة 1830م، وكان يُعرف بشجاعته حيث شارك في معركة سطاولي غير أن الأهالي ثاروا ضده ونهبوا منه أملاكه فاستنجد بالضابط الفرنسي كلوزيل ليتوجه بعدها إلى الإسكندرية. ينظر: حمدان خوجة، مصدر سابق، ص40.

[48] سيمون بفايفر، مصدر سابق، ص، ص89، 96.

[49] مصدر نفسه، ص98.

[50] مصدر نفسه، صص99-100.

وانسجام داخل صفوف الجيش، ولو كان تكوينه قد اقتصر على الإنكشارية فقط ما حدث ذلك فهم معتادون على الحروب والخطط، لكنه حدث عكس ذلك.

9. أوضاع الجزائر عقب الاحتلال

بعد هذه الحادثة ما كان على الداي سوى ترك قصره وحل الحكومة، كما تخلى جميع الموظفين عن وظائفهم، وتم تحرير الأسرى وكان هذا يوم 5 جويلية 1830م، أما في اليوم التالي دخلت فرق الجيش كل المدينة في جو من الفرح والنصر فيما بينهم [51]، وقد نهبوا قصور الداي والوزراء ولم يبق منها شيئًا حتى الأبواب خُلعت، بينما كان الأهالي يعيشون جو من الكآبة والحزن، وأصبحوا بمجرد رؤية الجنود الفرنسيون يختبؤون خوفًا منهم [52]، وقد اشتد الوضع سوءا بركود التجارة والصناعة، ونتيجة تراجع النشاط الزراعي جراء انتشار المجاعات، فقد ارتفعت أسعار المواد الغذائية، وما قُدم منها كان ذو نوعية سيئة، لدرجة أنه مات عدد كبير من السكان، كما وجدت القوات الفرنسية صعوبة في تنظيم أحوال نتيجة جهلهم للغة السكان وعاداتهم.[53]

وقد انعكس حال المدينة فاليهود الذين مُنعوا من ارتداء أي لباس سوى الأسود، فإنهم أصبحوا يرتدون ما يريدون شأنهم شأن الفئات الاجتماعية الأخرى، وبما أنَّ الضباط الفرنسيون فضلوهم عن الأهالي فقد ازدادوا تعنتا وأصبحوا يعاملون السكان معاملة سيئة، أما ضباط فرنسا فقد باشروا في تنظيم شؤون إدارتهم بتكوينهم لمجلس بلدي ينظم شؤون المدينة.[54]

10. تحرر سيمون بفايفر من الأسر

بفايفر الذي كان ينتظر تحرره من العبودية على يد الجيش الفرنسي، فقد مُنحت له حريته بمجرد مساعدته للجرحى الأتراك، ورغم أنه كان أسيرا إلا أنه لم يعامل طيلة فترة أسره معاملة الأسير والعبيد، فوضعه كان

[51] مصدر نفسه، صص101-103.

[52] مصدر نفسه، صص103-107.

[53] مصدر نفسه، ص123.

[54] مصدر نفسه، ص109.

مختلفا تماما من وضع الأسرى المسلمين في بلاد المسيح، كما أنَّ مهنته جعلته في أعلى المناصب ومنحته مكانة مهمة، حاول بفايفر تضميد جروح أكبر عدد ممكن من الأتراك والأهالي، لكن الإرهاق نال منه كثيرا، فقد كان الطبيب الوحيد بين الجرحى، عالج البعض منهم ومات البعض الآخر، ولتعبه الشديد لم يستطيع إكمال علاجه لما تبقى من الجرحى، وعاد إليهم في الصباح الباكر لإكمال مهمته.[55]

وباستيلاء الفرنسيين على المدينة، وبعدما كان بفايفر مجرد أسير امتهن الطب، فإنه في هذه الفترة أصبح الوسيط بين الوزراء الأتراك والجنرالات الفرنسيين حتى يُعيدون لهم ثرواتهم التي نهبها الجيش الفرنسي، التزاما منهم بما وقعوه في اتفاقية الاستسلام [56]، فقد كان لبفايفر علاقة مميزة مع الفرنسيين كونه مثلهم وبالتالي أصبحت مكانته مهمة، وبما أنَّ باي تيطري السابق قد وافق على أن يكون آغا للقائد العام الفرنسي دي بورمون[57] De Bourmont، فلم يجد من يثق فيه ويساعده في أداء مهامه سوى بفايفر، فعرض عليه أن يكون خزندار له وطبيبه في نفس الوقت، ورغم ثقل وأهمية هذه الوظيفة إلا أن بفايفر قد رفضها في البداية، حتى ألح عليه الباي وما تبقيّ لهم إلا الحصول على موافقة القائد العام الفرنسي.[58]

منح بومزراق كل الثقة لبفايفر، ورغم تقلبات مزاجه إلا أنه كان يعامله معاملة حسنة، وقد كان باي تيطري منزعجًا أشد الانزعاج من الحاكم العام الفرنسي بالجزائر الذي لم يقلده بعد منصب الأغا بصفة رسمية رغم الاتفاق على كل الشروط، لكن الحاكم العام تراجع عن منح رتبة الأغا لباي تيطري السابق بل منحها لشخص عربي آخر، وحسب ما أشار بفايفر ربما أنَّ من أخذ هذا المنصب كان قد قدم رشوة للحاكم الفرنسي [59].

---

[55] مصدر نفسه، صص86-90.

[56] مصدر نفسه، صص104-105.

[57] ولد سنة 1773 وتوفي سنة 1846م، عينه الملك شارل العاشر وزيرا للحربية وتدرج في المناصب إلى أن أصبح ماريشال سنة 1830م بالجزائر. ينظر: كريمة حرشوش، مرجع سابق، ص25.

[58] سيمون بفايفر، مصدر سابق، صص111-114

[59] مصدر نفسه، صص116-117.

في الأخير قرر بفايفر أن يسافر ويعود إلى بلده مثلما كان يأمل سابقا، فذهب قبل ذلك إلى القصر الذي كان يسكنه بالجزائر، أين أقام هناك عدة أيام منحه خلالها الجنرال دامريمون Damrémont[60] ثيابًا أوروبية، ولعلاقته الحسنة مع مختلف الضباط ورجال السياسة الأوروبيين، فرنسيين كانوا أو دنماركيين أو ألمان، فقد ساعدوه في سفره للعودة إلى بلده، حيث ركب سفينة فرنسية مساء يوم 16 سبتمبر 1830م مغادرا مدينة الجزائر حرا بعد مدة خمس سنوات كان قد قضاه في الأسر[61] .

خاتمة

في ختام مقالنا هذا، ومن خلال تناولنا لأوضاع إيالة الجزائر من خلال مذكرات سيمون بفايفر الذي عايش فترة نهاية الحكم العثماني بالإيالة، فإنا قد توصلنا إلى أن بفايفر كان قد نقل الأحداث بدقة ومصداقية دون تعصب تام مثلما نجده في أغلب الدراسات الأجنبية، خاصة وأنه كان أسيرا، وعلى الرغم من هذا يستلزم أن يكون التعامل مع هذا النوع من الكتابات موسوما بالحذر، مع إخضاعها للنّقد، حتّى لا يقع الباحث في فخ الأحكام المتحيّزة إن وُجدت.

أما حديث بفايفر عن أوضاع إيالة الجزائر زمن أسره فقد كانت تعاني الضعف خاصة من الناحية العسكرية، فحتى لو كان حسين داي من الحكام المعروفين بحنكتهم السياسية غير أنَّ ظروف توليه الحكم كانت صعبة وتعمها الفوضى، إلى جانب هذا فإن وزرائه لم يملكوا من الشجاعة والتجربة ما يكفي للتعامل مع مثل هذه الأوضاع، وكانت نتيجة ذلك أن سقطت الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي سنة 1830م.

قائمة المصادر والمراجع

- **المصادر باللغة العربية**

[60] ولد سنة 1783 بمدينة شامون الفرنسية، التحق بالمدرسة الحربية هناك، وشارك مع نابليون في معاركه، فتدرج في المناصب إلى أن أصبح قائدا عاما للقوات الفرنسية بالجزائر سنة 1837. ينظر: كريمة حرشوش، مرجع سابق، ص29.

[61] سيمون بفايفر، مصدر سابق، صص122-124.

1.آغا (إســـكندر بن يعقوب)، **تاريخ محمد علي باشـــا**، تح: أحمد عبد المنعم العدوي، مركز الدراســـات الأرمينية، القاهرة، 2009.

2.بفايفر (ســـيمون)، **مذكرات لمحة تاريخية عن الجزائر**، تر وتق: أبو العيد دودو، الشـــركة الوطنية للنشـــر والتوزيع، الجزائر، 1974.

3.خوجة (حمدان)، **المرآة**، تر وتح: محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005.

باللغة الأجنبية

1 . Pananti, Relation D'un Séjour-Contenant Des Observation Sur L'état Actuel De Cette Re-celles-ci, Les Subjuguer, Tr De L'anglais : Blanquiere Le Normant Imprimeur Libraire, Paris.

- **المراجع**

1. التر (عبد العزيز سامح)، **الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية**، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989.

2. سعد الله (أبو القاسم)، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال**، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1967، ط.3.

3. عميراوي (أحميدة)، **الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني مذكرات تيدنا أنموذجا**، دار الهدى، عين مليلة، 2003.

- **الدوريات باللغة العربية**

1. بوشنافي (محمد)، "الداي حسين وسقوط الإيالة الجزائرية 1818-1830"، مجلة عصور، ع.6-7، جوان-ديسمبر 2005، جامعة وهران.

2. حمودي (محمد)، "استراتيجية الترجمة عند أبي العيد دودو"، مجلة حوليات التراث، ع.5، 2006، جامعة مستغانم.

3. دودو (أبو العيد)، "المؤرخون الألمان والجزائر"، مجلة الأصالة، ع.14-15، 1973، الجزائر.

باللغة الأجنبية

1. Alfred Michiel, « La Prise D'Alger Raconté Par Un Captif », Revue africaine, n.01, 1875, Alger.

-الرسائل الجامعية

1. حرشوش (كريمة)، جرائم الجنرالات الفرنسية ضد مقاومة الأمير عبد القادر بالجزائر من خلال أدبياتهم 1832-1847، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، د.ت.